البناء الاجتماعي الجزائري الأمازيغي رؤية سوسيو أنثروبولوجية

د/ كريمة بوحريق
جامعة بسكرة

الملخص :

إن تناول الطرح المتعلق بهوية الشعب الجزائري الثقافية، ارتبط كونه في أغلب الأحيان تناولا انتقائيا، تسبب في وضع إشكالات عميقة في المجتمع، فعوض أن تتحرك البحوث والدراسات على أسس موضوعية، تحركت المطامع الاستعمارية والأطروحات الإيديولوجية لترهيب العقول والأفواه، وزع الفرقة والفتنة الاجتماعية، وزرع بذور التشكيك في الهوية وضرب الوحدة الوطنية الواحدة، فأصبح كل قيس يغني على ليلاه، فسال حبر كثير في أصول الجزائريين وانتمائهم الثقافي، فبين المنادين بأمازيغية الجزائر بعيدا عن العروبة من جهة إلى المنادين بعروبة المجتمع دون أمازيغيته من جهة أخرى.

من هذا المنطلق يتبادر إلى الأذهان سؤال محوري، ماهو الواقع السوسيو انثروبولوجي الذي يبين معالم البناء الاجتماعي في الجزائر؟ وهل بالضرورة خلق الشقاق أم الدعوة إلى تكوين مجتمع واحد موحد متنوع الثقافة؟

Abstract :

The debate on the identity of the Algerian cultural people was linked to the fact that it was often selective, which caused deep problems in society. Instead, research and studies moved on an objective basis, moving colonial ambitions and ideologies to intimidate minds and mouths, Doubts of identity and the strike of national unity one, so many people talk about the origins of the Algerians and their cultural affiliation, between among the advocates of Amazigh Algeria away from Arabism on the one hand to the advocates of Arab society without Amazigh on the other hand.

From this point of view, a central question arises: What is the socio-anthropological reality that illustrates the social structure of Algeria? Is it necessarily the creation of discord or the call for the formation of a unified society with a diverse culture

مقدمة:

قبل التطرق إلى وضع المجتمع الجزائري بنسقه الثقافي لابد من تحديد بعض المفاهيم وشرحها، وذلك لتدعيم المعطيات والشرح بنظريات علمية قائمة على الموضوعية وبعيدة عن التحيز والتحليلات التخمينية، ومن بين أهم المفاهيم التي نتناولها في هذا المقال نجد البناء الاجتماعي، الأمازيغ، العرب...

***البناء الاجتماعي:**

يعد راد كليف براون الانثروبولوجي البريطاني أول من استخدم مصطلح البناء الاجتماعي، رغم أن هذا المفهوم استخدم بمصطلحات أخرى قبله من قبل "مونتيسكيو" و"أوجست كونت" وغيرهم.

فحسب مونتيسكيو فإن استخدامه للمفهوم كان في كتابه روح القانون إذ يرى أن فهم قوانين أي مجتمع لا يكون إلا في ضوء علاقته بالنظم السياسية والاقتصادية والدينية والعادات والتقاليد وأمزجة الناس...

كما عالج أوجست كونت مفهوم البناء الاجتماعي عندما أشار إلى ما أسماه الإستاتيكا والديناميكا الاجتماعية، قاصدا الدراسة التحليلية للأجزاء المختلفة التي تكون النسق الاجتماعي الكلي...[1].

تمحورت أفكار راد كليف براون في دراسة البناء الاجتماعي حول التركيز على العلاقات الاجتماعية باعتبارها المكونات الأساسية , والبناء الاجتماعي في رأيه يعبر عن "مجموع علاقات ومعايير منظمة لسلوك الأشخاص [2] .

كما نجد أن مفهوم البناء الاجتماعي يتمحور حول "نوع من الترتيب بين مجموعة النظم يعتمد بعضها على بعض، وتعتبر وحدات البناء الاجتماعي هي ذاتها بناءات فرعية. والافتراض الأساسي هنا هو أن التكامل أو بقاء الكل يتوقف على العلاقات بين الأجزاء وأدائها لوظائفها [3] .

فالبناء الاجتماعي يتكون من مجموعة النظم السياسية والدينية والثقافية وكذلك الأعراف والتقاليد. والمعايير الاجتماعية المتكونة عبر سنين طوال، ولفهم حقيقة البناء الاجتماعي في الجزائر لابد من تناول الموضوع من رؤية سوسيو أنتروبولوجية، لها جذورها التاريخية الضاربة في واقعنا اليوم والمحددة للأجزء الاجتماعية المؤسس عليها.

ومن هذا المنطلق ولفهم البناء الاجتماعي الأمازيغي في الجزائر لابد من أن نتعرف على ماهية كلمة أمازيغ وماهو الأصل الاجتماعي والجغرافي لهم...

***كلمة أمازيغ:** "وهم السادة الأحرار لا يتحملون الخضوع لسلطان ولا يرخضون للقوة [4]، ولقد كتب الكثيرعن أصل الأمازيغ، بين الأنتروبولوجيين والمستشرقين والباحثين والمؤرخين، منهم من يحمل الفكر الاستعماري ، ومنهم من كتب بمنطلق روائي فلسفي ونجد القلة من كتب واستند إلى نظريات علمية بغية الوصول إلى حقائق وفرضيات تخدم البحث العلمي.

ونجد أنه وبالتدرج ذهب الباحثون في كل اتجاه "شرقا نحو الفرس وإلى سوريا وبلاد كنعان ونحو الهند وبلاد العرب الجنوبية في اليمن، وحتى شمالا نحو أوروبا الشمالية"[5]. فمن بين الفرضيات الشائعة، أن أصل الأمازيغ يعود إلى أصول فرعونية مصرية بناءا على رسومات وجدت في شمال إفريقيا وتعود إلى قرون خلت قبل الميلاد، فيها أناس يرتدون ألبسة ويحملون أسلحة كالمتداولة لدى قدماء المصريين[6].

ومن جهة أخرى نجد أن المؤرخ موفرز أخبرنا أن الكنعانيين عبروا إلى إفريقيا عبر سفن الفينيقيين، واختلطوا بالسكان الأوليين، واحترفوا الزراعة، وهم الذين عرفوا بالليبوفينيقيين، ونجد روايات أخرى ناشئة عن علم المصريات تدعم فرضية الأصول الشرقية، حيث يعتقد البعض أن الهكسوس وهرمن سوريا وآسيا الصغرى أخرجوا من مصر فلجأوا إلى إفريقيا وآخرون حاولوا إثبات الأصل الهندي للبربر[7].

***الأصل الأمازيغي والمعطيات الأنتروبولوجية:**

***الإنسان العاتري:** الثقافة العاترية وتم اكتشافها في بئر العاتر على الحدود التونسية الجزائرية، وامتدت إلى موريتانيا ومنعطف النيجر، ولقد تطورت هذه الثقافة عن طريق الموستيرية ثم القفصية، ولقد أكدت البحوث العلمية أن الأدوات العاترية ، هي في حقيقة الأمر أدوات موستيرية كالمكاشط وغيرها وعرفت الحضارة العاترية ثلاث مراحل: العاترية القديمة ثم الوسطى وصولا إلى العاترية العليا، والتي تعددت مواقعها بما في ذلك الصحراء الجزائرية واستمر وجودها حتى العصر الحجري الحديث[8].

***الأصل الغجر المتوسطي:**

أطلق مصطلح الغجر المتوسطي من قبل متخصصين في مجال الآثار والتاريخ على جنس كان متواجد في مختلف بلاد البحر المتوسط وظهر منذ بداية الألف الثامنة ق.م وهذا الجنس لا تزال جماعات من شعوب البحر المتوسط تحمل ملامحه كمتوسط القامة

المعتدل وتناسق تقاسيم الوجه، أنف مستقيم، أما عن أصل هذا الجنس، فهناك اختلاف عن كونه شرقي أم أوروبي.

***الحضارة القفصية:**

هي حضارة ما قبل التاريخ اسمها مشتق من اسم قفصة القديمة وهي ما بين الألف الثامنة والخامسة قبل الميلاد، وقد تمكن الباحثون من الكشف عن خصائص هذه الحضارة من خلال مواقع أثرية انطلاقا من التراب التونسي والجزائري ومركزها قفصة بتونس[9].

***أصل الأمازيغ في الجزائر:**

الحديث عن أصل الأمازيغ في الجزائر لا ينفصل عما تناولناه، فلقد تعددت الفرضيات بين الحقائق العلمية والدراسات الاستشراقية، غير أن الدراسات الأثرية والتاريخية تؤكد على محلية الإنسان الأمازيغي، وهذا ما دلت عليه الاكتشافات العلمية ولو أنها قليلة وأشارت بقايا عظام عثر عليها في أرضية الكهوف حيث كانت مدفونة إلى المناطق التي كانت مأهولة من قبل الأمازيغيين الأوائل، ومن بين هذه الاكتشافات تلك التي توصل إليها س.أربنورع عام 1948 كما أدت أبحاثه إلى اكتشافات قطعة حصى في حجم البرتقال وهي شظف من عمل الإنسان في بدايات ما قبل التاريخ، ومثل هذه الأحجار دلت على وجود الإنسان مبكرا في الجزائر وعثر أيضا على مثيلاتها في مراكش المغربية، ومناطق أخرى في شمال إفريقيا [10].

إن الإنسان الأمازيغي في المنطقة هو ذو أصل محلي، وهذه الفرضية يؤيدها المنطق لأن باقي الفرضيات فيها مغالطات معينة تشم فيها رائحة الاستعمار.

وكان ينبغي أن تنطلق الدراسات المتعلقة بأصول الأمازيغ من الشعب الأمازيغي ذاته، فأسلاف هذا المجتمع الذين انحدروا من القدم هم الذين عمروا البلاد منذ العصر الحجري ، ولكن المؤرخين الذين اعتمدوا على روايات المستشرقين تركوا العنان لروايات وفرضيات نفت أصالة الشعب الأمازيغي عن نفسه وأرضه، فلا ريب أن المجتمع القديم الجزائري هو امتداد لمجتمع حضاري ومثال ذلك الفن الصخري في الطاسيلي.

***المراحل السوسيو أنتروبولوجية لتطور المجتمع الجزائري:**

رغم تطور البحث السوسيو أنتروبولوجي في مجال المجتمعات، إلا أنه مازال يكتنفه الغموض في كيفية تشكل التنظيمات الاجتماعية المختلفة في المجتمعات القديمة، ومازالت قاصرة في التوصل إلى معطيات دقيقة غير قابلة للشك في هذا النوع من الدراسات غير

أن أغلب الأبحاث تشير إلى أن النظام القبلي وجد لدى الأمازيغ منذ أزمنة مبكرة وكانوا يتميزون بالقوة البدنية والاندفاع ضد الغزو والاعتداءات ، ويعبر مصطلح القبيلة عن "مجموعة أسر متحدة بوشاح القرابة، وهي كيان اجتماعي يقوم على القرابة بالدم والمصاهرة، ويمكن لهذا الكيان أن يتعزز بالمساكنة والمشاركة في مختلف النشاطات الاقتصادية ، وهي أول صورة للنظام الاجتماعي الدائم، والنظام القبلي في إفريقيا الشمالية قديم جدا[11].

وصل المجتمع الأمازيغي القديم إلى هذا الشكل من التنظيم على مر أزمنة طويل، وهذا نتيجة لتراكمات اجتماعية، تعزز من روح التضامن بين أفراد القبيلة، وتشكل التحالفات قوية، انبثقت منها قبائل كبرى على شكل كنفدراليات–بالمصطلح الحالي– كبرى، كل واحدة منها في حجم مجتمع كبير، وأبرزها مملكة النوميد والمور.

من جهة أخرى تشير أغلب الدراسات أن نظام الزواج وتكوين عائلة هو تقليد قديم في إفريقيتا الشمالية والمجتمع الأمازيغي في الجزائر، وكانت العائلة تمثل رمزا قويا من رموز القبيلة ووحدتها، حيث تنشا عن الرابطة الزواجية روابط القرابة، ويعيش أفراد العائلة مع بعضهم متضامنين يضمهم مسكن واحد وخاضعين لأحكام الأعراف والتقاليد، وبالنسبة للنظام الأسري "تكون فيه السلطة المطلقة للرجال، بحيث ينتسب إليهم الأطفال ويتوارث الذكور ذلك بحكم صلة القرابة، وقد كانت الأسرة الأبوية هي السائدة في بلاد المغرب القديم تعكس النظام الأموسي الذي كان محدود في مناطق معينة في بعض من قبائل الصحراء[12].

الأسرة في المجتمع الأمازيغي القديم هي نواة ذلك المجتمع ومركز قوته فهي ضرورية لبقاء نظام القبيلة وقوتها، ويرأس مجتمع القبيلة زعيم أو رئيس أسرة معينة، تحتكر لنفسها زعامة القبيلة اعتمادا على قوة رجالها، وكان زعيم القبيلة يعزل من مكانة إذا ثبتت عدم كفاءته ويعهد لمنصبه إلى أحد أعضاء الأسرة الآخرين.

أما بالنسبة لمكانة المرأة في المجتمع الأمازيغي القديم، فليس ما يشير إلى الانتقاص من دورها وقيمة مكانتها، بل على العكس من ذلك، فالمؤرخين الذين تناولوا المسألة أبرزوا دورها من خلال مالعبته بعض النساء الأمازيغيات الشهيرات في تاريخ شمال إفريقيا مثل سيريا أخت المقاوم فيرموس من القرن الرابع ميلادي التي ذهبت بنفسها إلى ميدان المعركة لحضور امضاء إتفاقية... [13]. وغير ذلك من الأمثلة.

لقد كان البناء الاجتماعي الأمازيغي القديم متماسك وقوي ودل ذلك على الصمود الطويل أمام الاحتلال الفينيقي وبعده الاحتلال الروماني لفترة طويلة على مدى قرون وبعدهم الوندااليون، ومن ثم الاحتلال البيزنطي. والنقاط المهمة التي لا تغفل على أي محلل سوسيولوجي أن هذه الدول الكبرى حاولت فرض سيطرتها على الأمازيغ في الجزائر وذلك لما للبلد من موقع استراتيجي وخيرات طبيعية كثيرة، والجدير بالذكر أن المجتمع الأمازيغي المعروف، بعدم الخضوع ، كان يقاوم كل ذلك ويلجأ إلى المناطق الجبلية والصحاري والكهوف لاتخاذها حصونا، وانطلاقا في مقاومته؛ وتكيف مع الطبيعة العمرانية الصعبة نجد أن الصفات الاجتماعية لهذا الشعب تتميز بالعصبية والدفاع عن الأرض والتلاحم مع باقي أفراد القبيلة تحت لواء علاقات واحدة والانطواء تحت راية المقاومة.

***المجتمع الأمازيغي ومرحلة دخول العرب:**

من أبرز الفترات التاريخية التي أثرت في المجتمع الجزائري الأمازيغي هي فترة دخول العرب المسلمين ، ولقد أخرت تناول مصطلح دخول العرب، للموضوعية التاريخية والطرح العلمي السوسيولوجي، البعيد عن الأحكام الذاتية؛ حيث يوجد من أسمى تلك الفترة بالفتح الإسلامي، وآخرون أطلقوا عليها مرحلة الغزو ، وبين هذا وذلك ومصداقية منا نتناول مفهوم التواجد العربي الإسلامي كمصطلح محايد ولا يخضع لأي اتجاهات إيديولوجية.

اعتبر الأمازيغ العرب كغيرهم عبارة عن محتل جاء لاغتصاب الأرض، وقاوموهم بشدة كبيرة في بادئ الأمر، لكن تغير الوضع بعد ذلك، وحدث قبول من قبل الأمازيغ للمسلمين واندمجوا في مجتمع واحد، فما هي أسباب هذا الاندماج؟ وكيف استطاع الأمازيغ الرافضين للخضوع قبول المجتمع العربي المسلم؟

لقد "انتشر الإسلام بسرعة في شمال إفريقيا عكس المسيحية التي عاشت ما يقارب ستة قرون في هذه المنطقة دون أي تأثير على أصل السكان[14].

ويرى بعض المحللين للوضع ومنهم الأستاذ بلقاسم بوقرة في كتابه أن ظهور العرب وتواجدهم في المنطقة يقسم على مرحلتين:

1-مرحلة المقاومة والحروب.

2-مرحلة التقبل والتمازج.

كان رفض الأمازيغ للعرب في البداية مبررا ولديه أسباب مباشرة لذلك، حيث اعتبروهم أجانب كغيرهم ولم يقتنعوا بفكرة اعتناق دين جديد عليهم ، خاصة أنهم كانوا مجتمعا وثينا،

بالإضافة أن العرب أخطأوا في إستراتيجيتهم وحاولوا الدخول عن طريق الأرياف وهي ما كانت حصنا للأمازيغ، ولم ينجح العرب في الدخول والانتشار إلا عندما قاموا بذلك عن طريق المدن، بالإضافة إلى منهج أو مفهوم الخراج الذي تبناه المسلمون وهو "أن لا تأخذ الأراضي من أصحابها وإنما تأخذ ضريبة عليها، وهذا ما اعتبره الأمازيغ مقارنة بالأنظمة السابقة انتصارا كبيرا[15].

مصطلح الخراج يطابق مفهوم الملكية عند الأمازيغ أي أن الأرض يمنع بيعها لكن يجوز استغلالها وتوريثها ، وفي هذه الأثناء استطاع العرب المسلمون أن ينشروا ثقافتهم في المنطقة بعد أن منحهم الأمازيغ ثقتهم، لكن ذلك جاء بعد مقاومة شديدة.

الجدير بالذكر أن الذكاء السياسي لدى قادة العرب آنذاك وحسن قراءاتهم للبناء الاجتماعي وتغييرهم لإستراتيجيتهم ساهم في الدخول إلى المجتمع الأمازيغي، لكن السؤال المطروح، هل أن الذكاء السياسي للعرب هو وحدة جعل الأمازيغ يتقبلون الحضارة العربية الإسلامية؟ من الأسباب التي أدت إلى قبول العرب في المنطقة هو الذكاء السياسي لهم بالإضافة إلى التقاءات جوهرية بين الشعبين والذي نتج عنه تمازج الثقافتين وعرفت الجزائر منذ ذلك الوقت بأنها مجتمع أمازيغي عربه الإسلام وأن تحقيق الاندماج بين المسلمين وسكان البلاد الأصليين هو اندماج أبدي، فأصبح لا فرق بين عربي وأمازيغي، ومن أهم النقاط الجوهرية لتشابه الثقافتين هي:

-الإنسان الأمازيغي إنسان يعيش في الريف، في ظل حماية العائلة والملكية الجماعية أيضا الإنسان العربي آنذاك، وكما هو معروف فهم يعتمدون على نظام العائلة ونظام القرابة والنسب.

-الأمازيغ متعودون على تقديس الأرض والاستماتة في الدفاع عليها كذلك اشتهر العرب بهذه الصفات.

النظام القبلي، تعود الأمازيغ على نظام القبائل والتي تتوحد في حالة دخول محتل، كذلك العرب عرفوا بالقبائل

-البناء الاجتماعي الأمازيغي والبناء الاجتماعي العربي كانا متماثلين في خصائصها إلى حد كبير، والأكبر من ذلك أن الإسلام جمع بينهما، فالتعاليم الدينية السمحاء جعلت الأمازيغيين من أكثر الناس تمسكا بالإسلام ولقد اشتهر بعد ذلك قادة عظام كطارق بن زياد القائد الأمازيغي المسلم.

ونحن اليوم نعيش في الجزائر ضمن نسق اجتماعي متكامل تعبر عنه الهوية الأمازيغية العربية الإسلامية ضمن وحدة واحدة متكاملة لا ضرورة للشقاق والانقسام في ظل وطن واحد.

الهوامش:

1) خالد حامد، المدخل إلى علم الاجتماع، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008، ص 21.
2) المرجع نفسه، ص 23.
3) فاروق مداس، قاموس مصطلحات علم الاجتماع، دار مدني للنشر والتوزيع ، الجزائر، 2003، ص 50.
4) صالح فركوس، تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال، المراحل الكبرى، دار العلوم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص 4.
5) العربي عقون، الأمازيغ عبر التاريخ نظرة موجزة في الأصول والهوية، دار الهدى للنشر والتوزيع ، الجزائر، ص 7.
6) Mohamd Akli Haddadou, Guide de la culture Berberen edition talantikit Bejaia, 201, pp, 21-22.
7) العربي عقون، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الافريقي القديم، دار الهدى، الجزائر، 2008، ص ص 131-132.
8) صالح فركوس، المرجع السابق، ص ص 15-16.
9) العربي عقون، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الافريقي القديم، المرجع السابق، ص ص 199-200.
10) صالح فركوس، المرجع السابق، ص ص 14-15.
11) العربي عقون، الاقتصاد والمجتمع في الشمال الإفريقي القديم، المرجع السابق، ص 16.
12) محمد الصغير غانم، سيرتا النوميدية النشأة والتطور، دار الهدى الجزائر، 2008، ص ص 204-205.
13) العرب يعقون، الاقتصاد في الشمال الإفريقي القديم، ص 16.
14) صالح فركوس، المرجع السابق، ص 20.
15) بلقاسم بوقرة، من الاستبداد الشرقي إلى النظام العالمي الجديد، ديوان المطبوعات الجزائرية، الجزائر، 2004، ص 133.
16) المرجع نفسه، ص 137.